قدري أن أولد أنثى

مجموعة قصصية

أمان أحمد السيد



قدري أن أولد أنثى

أمان أحمد السيد

الكتاب : قدري أن أولد أنثى (مجموعة قصصية)

المؤلف : أمان السيد

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٥٥٩٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 36 - 4

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)-٦٤/٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : الفنان أمين الصيرفي

الإهداء..

طرقات أنوثتي مبعثرة..

لو كان بيدي بعثرتها أكثر..

وأهديتها..

إلى كل من شعرت بهم دون أن حتّى يلمحوني..

أمان

جِنازةٌ لقلبٍ فقدَ الأَمان

(إلى روح أبي الغالي التي تعبق في فؤادي حتى اليوم)

تَعلّقتْ بأطراف ثوبه الوارف كتلك الخيمة العنبية المعانقةِ سطحَ بيتهم الكبير.

في عينيه طمأنينة تأسرُك، في لمسة كفيه، وضمة ذراعيه الناعمتين ما يجعلك تستكين وتهدأ، مهما حوصرت بالضجيج والصخب. في جبهتهِ رقةٌ وأنفه يتميز بإباءٍ لا يملكه الكثيرون، كل ما فيه يُغرقكَ بحنانٍ وعطاءٍ لا مثيل لهما.

– ماذا ينتظرنا هذا المساء؟ أما زلت تذكرين أم نسيت؟

لم تكن تتخيل أن تكون تلك الكلمات آخر ما سينطقه في حياته.

أجابته بفرح وشقاوة طفولية:

– طبعًا، أليس هو موعدنا لكل خميس «غدًا تُشرق الشمس»؟ أمن الممكن أن أتوه عنه؟ إنه مسلسلنا الذي ننتظره ونراه معًا في مثل هذا اليوم من كل أسبوع.

- أنتِ محرومةٌ منه اليوم.

بضحكة خفية أجابها، يريد أن يُعابثها كما اعتاد دومًا، ابنتَه المحببة إلى قلبه كانت، فَرحُه بها كما لم يفرح أبٌ بأنثى، كان يردد:

إن الإنسان المحظوظ هو من يُرزق ببنت، تكون بكرًا لأولاده.

ابتسامته المخبوءة تلك أضاءت بدعابة لطيفة على وجهه، ألْقتْ ظلالها على وجهها ونفسها وقلبها، سبحت روحها بين السحب؛ في سماءٍ لا تعرف لها بدايات أو نهايات، كان موعدًا للقاء عوّدها عليه، وعدًا مفرحًا ألفَتْه كلَّ ليلة خميس، لم تكن تدري أنه الموعد الذي لن يأتي.

حملتْ حقيبتها الطفولية، وإلى مدرستها انطلقت خفيفة الخطا، ورفائف من الحمام تتبعها، تحطُّ على كتفيها، وغيمة سارحة في الأفق ترمقها بصمتٍ ينذر بالأسى.

مساؤها، أقبل يغصُّ بشمسه التي أَلِفَ رحيلها الهادئ في توالي الأيام، لكنها لا تريد الرحيل هذه الليلة، وسفرها تصحبه قوافل من الحزن دامسة، فلا القمر راغب في عناق الأفق، ولا النجوم تناثرت عقد جمان أضاء الوجود.

عادت تنتعل حقيبتها ثقيلة، ولا حمام يتبعها، وحدها تلك الغيمة السارحة في الأفق ترمقها بصمت.

فوق سطح بيتهم الكبير، خيمة العنب، صعدت تشكو إليها، استغربت عناقيدُها حالَهَا القلقة، وكأن عدوى أصابتها:

لِمَ طالت غيبته؟ هل تراه نسي لقاءهما الذي ينتظرانه معًا في هذه الساعات؟

سمعتْ قرعًا ملحًا على باب بيتهم، طَالعَها شابٌ في عينيه شحوب، وارتعاش، وصدمة مكبوتة، وشفتاه تطلبان شيئًا بعبارات متلعثمة، لم تتبين هويته، و لم تفهم ما يَطلب، لكنها في قرارة نفسها أحست أَن أَمرًا عظيمًا قد حدث.

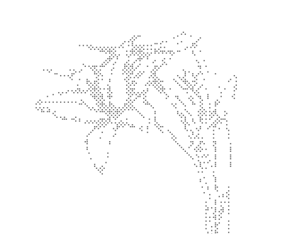
شعُرتْ أنها تفقد إحساسًا جميلاً، ينسحب، يُغادرها، لا يستأذنها، في غفلة ما، يسرق منها الأشياء، أجملها.

أيمكن لإنسانٍ أن يُقتلع هكذا دون رحمة من طمأنينته؟ من أُلفته؟ من عبثه الطفولي؟ من حضن أبٍ دافئ؟ ولمسة تطوف بكَ إلى حيث لا شيء يُوصف أو يُقال؟

انهال الحزن كثيفًا وجارحًا، هي والسماء تعانقتا، وبخطوات سريعة، مجنونة، ولاهثة، أخذت تدور تحتها؛ تحت خيمة العنب التي عاشرتها عمرًا، حين تدرس، حين تلهو، حين يحلو لها تأمل الأفق، ومجموعتي الدب الأكبر والأصغر، إلى أن فقدت السيطرة على كل شيء حين رأت

خيمة العنب تتمدد لتتحول إلى قطعة خشب مسطحة يحملها شخصان واجمان يمددان فوقها جسدًا مُسجى، ارتسم على شفتيه وعدٌ محبأ.

عادت لتتعلق من جديد، لا بأطراف الثوب الوارف، بل بتلك الخيمة العنبية التي استطالت في طريقها إلى السماء حاملة معها جنازة لقلبٍ صغيرٍ فارقه الأمان.



خطوات

التفتت وراءها تُصغ السمع، ثمة خطوات عجلى تقرع إسفلت الشارع. قطرات المطر ترشح من مظلتها؛ من ثيابها، حتى من أنفاسها، كل ما حولها بارد ثلجي، إلا دقات قلبها، تزايد قرع الدقات على جدران القلب الهادئ مع تزايد الخطوات اقترابًا.

الظلام شديد الوطء على كل ما حوله، لكنها لم تكن لتشعر بالخوف قبل تلك اللحظات، كانت سعيدة كعادتها حين تمشي تحت المطر، في مِشيتها تلك تشعر أنها امتلكت العالم، تربعت سيدة متفردة على عرشه.
في كل حين تمنت لو تمطّى الليل، وركب ألف حصان وحصان، تطاولت العتمة، تثاءبت، أن يفيض المطر أنهارًا تغمرها.

شتاء مدينتها في كلِّ عامٍ كان يزداد جمالاً وألقا، كثيرًا ما تنبأت به قبل أن يزورَهم ضيفًا لطيفًا كل عام، ترقبه من نافذة صغيرة في باب بيتهم الكبير،

يحمرُّ الأفق، يختلط بتموجاتٍ وردية، ونارية، يحزن، يعبس، يكفهرُّ، ثم يعربد كسكيرٍ سُلب منهُ شرابُه.

آه، كم كانتْ عربدتُه جميلة حين يتعانق والأرض، تَعبق رائحة غريبة، هي مزيج من عبقٍ وسحر، سموٍّ وعطاء، ونشوة تسري في شرايينها لتنبثق منها حياة جديدة في كل عام.

ما بها الخطوات تتزايد، تحتدُّ بشكلٍ غريب؟ لماذا تريد أن تُعكر عليها ملكوتَها العزيز؟ لماذا تريد أن تقف لها في الطرقات وتحت المزاريب؟ لماذا تريد مشاركتها مظلتها الغالية، قطرات المطر، والعطر؟

انبثقت الحياة فجأة في أوصالها، وعبر لحظة لا يمكن أن تُقاس، بإصرار العالم كله، بقوة عبق الأرض، عطاء التربة، كانت منها التفاتة، وإذا بالخطوات تُسابق الريح، تاركةً وراءها مجرد أصداء.

أبـواب الحنين

– يا جار.. يا جار.. أسرع، فثعبانٌ يزرع خطاه في أرضك.

تعالى صوت الجار الذي قارب على الستين من عمره مناديًا جاره الشاب الرزين.

ذكرياتٌ تقرع أبواب الحنين، تأبى إلا أن تشرّعها كلها للريح، للأحاسيس، للرماد الذي يأبى أن يخمد.

أسرعتْ تبحث عن قلمٍ وورقة، مجرد ورقة رأتها في حجرة أُمها التي استلقت فارشة السرير، فاتحة الذراعين، ملقية بكلّ حملها فوق سريرها الأبيض الذي تفوح منه رائحة أشبه بالورد، بالياسمين، بعبقٍ وتلألؤٍ لم تعهدهما في ثياب أو ملاءات أحدٍ أبدا.

عادت تُسرِّح بصرها فيما تبقى من الأخضر الذي يحاصر تلك الجدران الأسمنتية منتصرًا على عوامل الزمن والتخريب، ضدّ ما دُعي بالتطور، كلما جلستْ في ذلك المكان، وسرَّحت البصر حولها، عادت تلك العبارة القديمة تدق أبواب الحنين.

(ها هو يسرع وراء ذلك الثعبان).

لم تكن ثعابين حديقتهم لتخيفها، فهي أَليفةٌ أُلفةُ تربةِ ذلك البيت العريق، وذاك الشجر الذي يلتف معانقًا أُسرةً صغيرةً تتعايش مع الحياة عبر رحلة من الأحلام ظنتها ستتحقق يومًا.

ها هي النسيمات الصيفية ذاتها، ها هو جدار الجيران نفسه يحتضن شجيرات رفض أهلها التطور أو التحضر، وكأنها بَقِيَتْ لأجلها، لأجل عينيها وروحها، ما اختلف هو الامتداد فقط.

كان الامتداد فوق شجرة المشمش تارةً، والرمان تارةً أخرى، كان الحصار بعريشات الياسمين الأبيض حينًا، وزهر الليل حينًا، تنوع غريب لا يمكن أن يتماوج إلا في عالمها هي، وها هو الامتداد قد تحول إلى علب إسمنتية جميلة أنيقة.

الشعور ذاته، أو فيؤه عبر أمواج من الغصص، والحنين الذي يأبى إلا أن يُواصل في أعماقها إبحاره الأبدي.

تهالكتْ على المقعد الذي اختارته لنفسها دون تفكير، وكأن شيئًا ما يجذبها إليه.

ازداد الارتباط بالمكان، بالزمان؛ أكثر، فأكثر... ودَّت لو تستطيع تحطيم الإسمنت الكريه، لتتنشق عبير التربة المسجونة تحته، هي واثقة أنه لو قُدِّر لها تحطيمه لفاح العطر القديم معانقًا كل ما حوله، لعاد صوت الجار القديم يحذر جاره الرزين، لعادت الأسرة الصغيرة تعانق أحلامها في ظل أشجار البرتقال وعباد الشمس والعُصْفُر، لغابت الألوان والظلال في عناق الهوى، لَتَنَاثر المدى؛ تشكل بآلاف آلاف الأصداء والذكريات، لعاود الدفء غمرَهُ أبواب الحنين.

المطر... وأشياء أخرى

– استنزفني أيها المطر.

صاحت به أكثر وأكثر، ألهبني غيومًا، بددني سكائب، اغمرني عشقًا وموجًا وصخرًا ورملًا، إنه بقربي، لا شيء يفصلنا، وللمدى يلقي وقارًا، وهيبة، وربطة عنق، قيودًا عليها أُرغِم، ألبس الْكان في الصباح بخطو مَلك في ممرات جامعةٍ تفرغ ذكورًا وإناثًا بمجرد أن فيها يتهادى؟

على أشعار «ديك الجن» وتراتيل مطر، وليل، وسيارة صغيرة ودربٍ بلهفة عاشقين، وسنين حرمان، انطلق.. غنّ.. ليتهم إلينا ينظرون، كم أنهم سيحسدونني.

على أدراج الياسمين...

أخطو صبية بالحلم حبلى، وظلالك الأربعينية توقظ حتى الركام.

في زاوية منسية ذات يوم إليّ أوعزتَ أن أنتظركَ كلّ خفقة مساء، حين قاعات الجامعة للرحيل تبكم أجراسها.

من العتمة عليَّ تخشى؟ فثمة حلكة مربكة ونجمة ربما منك تسرقني وعنك تبعدني.

ليل مجنون.. وأنا وأنت والمطر اللألاء، من أجلنا عن كلِّ المناصب تخليتَ، مؤلفاتك، طلبتك، منصةُ الجامعة، وأشياء أخرى.

من قال إنني إليك لا أتلهّف؟

حين في الصّباح مقعدي أستظله، نغمةً أتحولُ، وأنّى انسكبتُ سياجك يلملمني، وقطعة الطباشير البيضاء في يدك سحابةً عبق حولي تتداعى، ترسم فيئًا،وكوخًا،وزرّ وردٍ، ووجنة أقحوان، وهنَّ، أراهنَّ بلهفٍ فيك يهمنَ، وأنا في مقعدي، أعرف أنك لي، ليتهنّ يعرفنَ.

أربعينك سرٌّ كثيف، ووحدهما حدقتاك تومضان لي:

«المساء قريب والزاوية المنسية، ومطرنا المستتار، وأمّ كلثوم، وطيفي الذي عن مضجعك وقت الرقاد لا ينثني»

لشالي أبدًا لا آبه، هو الآخر معك يطير، وما من المطر يأتي لا أخشاه، كلُّ ما أخشاه أن عني تتوقف، ماذا بنا فعلت؟

أُدرك أنكّ تريدني أن أُكبر، أن أمتدّ، وإلى أربعينك أتسلّق، انطلق أكثر، لي أنا وحدي، لا أمي عدتُ أذكرها، لا كتبي، لا محاضراتي، لا شجو البلابل، وحده المطر المسافر استنزفني.. وعن الحاضر غيّبني.

مشوارنا المسائي في الأفق ينغرس، هو الآخر في نشوةٍ هائم، وقمرنا الصغير إلينا يُومي:

« يكفيكما اليوم».

وأمي في الباب تصعقنا، زوبعة تهدر:

– أيها الأستاذ الكبير إنها في عمر ابنتك.

«من قال لها ذلك؟ من ذاك عني أخبرها؟» كم هو مقيت ذاك المساء حين اتصال حيٌّ منك فاجأني، وعنك باعدني:

– أمانتي إليّ أرجوك ردّيها، شريط أمّ كلثوم، اسأل روحك».

التهمة «حبة زيتون»

دخلتْ بيتهم ذات يوم صبيةٌ فتيةٌ في الثالثة والعشرين من عمرها، نسمة شهدٍ ترتحل في وجنتيها،عينان دعجاوان ، وفمٌ كحبة كرز انفلتت في يوم صيفي لطيف.

جاء بها زوجها وألقاها عندهم: استلموها، كرهت حياتي معها، مخلوقة ستؤدي بي إلى الجنون في يوم قريب، لم أعد أحتمل، أنتم أحق بها، قَدَري أحمق يوم أن عرفتها.

حاول صاحب البيت أن يهدئ من ثورة الزوج، أن يستمهله:

— لنشرب فنجان قهوة، لا يمكنك أن ترحل وأنت على هذه الصورة من الاستعار.

صفق الباب وراءه، ودخلت هي بهدوء، وكأن الأمر لا يخصها، حبة الكرز مطبقة بخجل، وقد أصبحت الشفتان أكثر انقراضًا وانقماصًا إلى الداخل!

أُجبر صاحب البيت على استقبالها، ضيفة أُكره عليها، لا يستطيع أن يرفض وإلا أصبح مضغة في فم أقربائه في تلك البلدة الصغيرة التي ما زالت تعيش حياة تقليدية، التقاليد والأعراف لها سراديبها، ومن يُخرج رأسه إلى النور، بصعوبة يستطيع أن يحميه من العاصفة.

الصبية يتيمة، وهي ابنة عمه، وهو الأجدر بالوصاية عليها، وحتى هذه اللحظة لا يعرف سبب إلقائها في بيته، استحيا أن يسألها، لكنه لحِظَ صمتها المطبق، وشفتيها اللتين تنكمشان إلى الداخل أكثر فأكثر.

انشغلت بها صاحبة البيت قليلاً، ثم ودَّعتها إلى حجرة قريبة، في بيت منبسط من الممكن لإنسان أن يتسلم غرفة فيه، ويُنسى أمرُه.
أخذ الصغار يمرحون حولها، مستغربين تلك الطالعة عليهم من سِفر كتاب بحروف أعجمية.

أكثر من مرة حاول القريب أن يجرّ قريبته إلى حديث يصل منه إلى شيء، علّه يعيد الأمور بين الزوجين إلى صفاء مأمول، لكنَّه لم يكن يتلقى إلا إيماءة، وتمتمات حبة كرز ساكنة.

ابنة عمه فُرضت عليه بحكم الإجارة، وهو بعائلته يكاد يضيق، فكيف بمن تتسحب إليه بثقل مشكلة، وبمسؤولية لا طاقة له باحتوائها؟

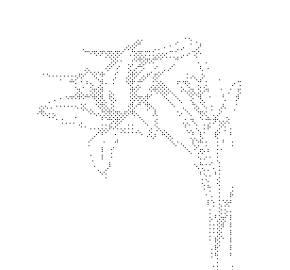
مرت أيام وأيام ،واللغز يزداد غموضًا، والصَّبية شكَّلت لصاحبة البيت همًا من نوع آخر.

امرأتان تربان، والعسل من إحداهما يستودع الكرز الخجول حلاوته فيجبِ السكينة والوقار.

اشتعلَ البيت مَرَّة،وفارَ التنور،وصفعة"من صاحبه جاءت على وجه ابنة العم لتنفلت من الضيفة حبتا زيتون وضعت كل منهما في جانبِ من الفم المتكور.

استفاقت حبة الكرز من حلمها الصيفي وانسابت في حديث كأبناء الحياة، أما الوجه الفتي الجميل فقد تسربل ببكاء شجيّ.. كشف اللغز الدفين، فتلك الصبية سَرَت إليها ذات يوم عدوى تناقلها نسوة جاهلات، فأخبرتها:

«كي تكون لك وجنتان ممسدتان، فتيتان، ما عليك إلا أن تدعي في جانبي فمك دومًا حبتي زيتون، ويكون بينك وبين لغة أبناء البشر شيء من الهدنة».



موعد مع بوذا

هذه المرأة لم تلتفتْ إليَّ، في داخلي سعدتُ، دعوتُ أكثر، وأكثر أن يبتعدنَّ عني، لكن لماذا تراه يقتنص إليّ نظرة؟ يبدو أنه الآخر قادمٌ باتجاه طاولتي. الساعة بثوانيها تناديني، هي الأخرى ملَّت التفافَها معصمي منذ شقوق الفجر إلى تمطّي الظهيرة.

وتلك، مني تدنو، شكلها غريب، ولهفتها معدومة، بادرتها بالسؤال أريد أن أختصر عليها وعلى نفسي مسافات وقتٍ:
لا بدّ أنك والدتها، ففيك شيء منها، ماذا تودين أن تعرفي؟ تفضلي.. اسألي.. عن درجات الفتاة المدرسيّة راحت تسألني، بيني وبين نفسي أسررت: «غلطتُ حين طرفَ الخيط لها أرخيت» والخجل رغبت أن أستثيره فيها، فصحتُ:
– درجاتها ؟ أنا عنها تسأليني؟
– أنا لست أمها أنا خالتها.

- تقصدين أنك زوجة أبيها؟

- لا أنا شقيقة أمها.

- وأين أمها؟ ما الذي حبسها عن المجيء للسؤال عن ابنتها؟ أهي الأسواق شغلتها؟ أم هاتف به تلهو؟ أم مهام أخرى؟

واحدة من تلك النسوة تمنيتُ أن تأتيني، وهي عن ابنتها تعلم شيئًا، كلّ شيءٍ عليّ مُلقى، حتى استفساراتهن... مجرد أسئلة لا تحمل في أعماقها الكثير.

وحين أدارت تلك المرأة ظهرها إليّ، كوة صغيرة في كتابي ألفيتها لي تبتسم: «كم أنت جميل يا كتابي، عالمك جناح فراشة بين الحين والحين عبره أنطلق، وأتنفس»

جرح صغير تحت عيني ما أفتأ أنتؤه حين ضيقٌ بي يستبدّ، دائمًا هو يستقبل الهواء، لا أريد له أن يُشفى، فهو صهوتي.

أووه.. وذاك الذي ينتظر مسترقًا النظر، هو لا يضايقني بأسئلته: تفضل.

- تسأل عن ابنتك سمارة؟ اسمها جميل كحضورها، وحضورك، في عينيها، «بغداد» توقظني، لكن لم أنتَ بالذات جئت تستوضح؟ هل تراك تنوب عن أمها؟ ابنتك شدتني، اطمئنّ عليها، وعلى مذاكرتها، شغوفٌ هي، لا تهدأ في مكان، كغيمة عطر أسرتني.

وتلك؟ وذاك؟ الساعة تئن، وكلٌّ يريد أن يُشركني همومه، وأنا أضجُّ بالتعب، أتُراكُمْ في ساحات عينيّ رأيتُم نهرًا فاندفقتم فيه.

– هي باستمرار تطالبني بإعادة شرح الدروس.

– اعذريها، أرجوك.

– لا،لا تسيء فهمي، ما قصدت أن أشتكيها، مجرد تلميح مني.. أردت أن تعرف أنني تبيّنت ابنتك.

– أنا، وأمّها انفصلنا، زوجتي الجديدة في البيت، وكلاهما بين مدّ وجزر.

– حسنًا، لا تهتمّ، أرح نفسك من التبرير، وأمها؟ أتُراك حرمتها من الالتقاء بها، وحمّلتها ثقل حظّك؟

– لا، لا إنه قدر الله، في الصيف تلتقيها، وفي الإجازات.

«كم أنت شقي، لونك المسمرّ المنهار ينطق بكل ما فيك، وفيها»

«أوه، وتلك المقبلة بكلّها عليّ، بعائلتها، أما كان بإمكانها نسيان بعض منها في البيت أو في السيارة؟ ألِى حفل تراهنّ قادمات؟ أم إلى جلسة علاج نفسيّ؟»

وأنا «بوذا» الذي يتربع عرش الفرج، معاناتها كسجل رسمي أمامي سردتها، لا أبيض، لا أسود، الألوان توازت، وأنا، كهرمٍ، طبعي متمردٌ

أبدًا على كل عوج، الدرجاتُ، سيرُ الدروس، كلّ شيءٍ بسرعة غبارٌ كثيفٌ غلّفَه»

استرسلي أكثر أيتها الأمّ؛ ففينا شيء مشترك.

لا تلوميها على التقصير في دروسها، إنها تصادق مغنية، بساعات استذكارها استأثرت.

« طفلة على مقاعد الدراسة تصادق مغنية!»

إلى كتابي بقهر نظرةٌمني انفتلت،عابسًا رأيته، الأم قزم، والزمن قزم، وبوذا عيناه تحت الرماد تتقلّبان.

عقربُ ساعتي، منه فرصة غافلتني، وجرحي ازداد نتنًا، أُوه، تلك الخيامُ السودُ أخيرًا، أبوابَ الرحيل استقبلتْ أخيرًا، أخيرًا جاء الفرج.

إلى دون كيشوتي

انقطع زمانًا عن الرد على هاتفه، وقد كان في دوامة ثقافته وانتمائه طويلًا قد عبّدها، فأرسلت إليه ذات يوم تقول:مسكين أنت يا صديقي، تائه في زمن أحذيتك، تُزوبعُ في لجٍ عميق، تلطم الجدار فيتلقاك الآخر،عذرًا صديقي المتوازن، عذرًا من وطن كبير، أنت منه ثمرة، ومن كلمات أوصلتني الشمس، أنت فارسها، من دماء طاهرة،من نُطف سماوية، أنت امتدادها.

تهرب؟! وعن المواجهة تجبن؟!
أيا أنت، أيا ابن أرضٍ أغدقت طهرها، وللجذور أشربته،عذرًا منك يا رجلاً مسكينًا في حلقة مفرغة يدور، عصمت نفسي كثيراً عن صفعك، لا لشيء، إلا لأني أحترم نفسًا، بك مرة تلاقت.

لكنْ، بدا أنه لا بد من الصّفع، لاسيّما أنك بضعف غريب كل الأبواب والنوافذ أوصدت، وحشوت كل الثقوب.

يا نفسي، أستميحكِ بهاء الأعذار، وإليك أتوّجه، فما اعتدت سيدي أن أحاصر الآخرين، ما اعتدت تضييق الخناق، فحريتي هي الأغلى لديّ، ونفسي أرقى من أن تنحط إلى دونية في موقف أو شعور.

فرصة خذ لنفسك واسألها، لِمَ إلحاحي في الاتصال؟
فما أنت صديقي المسكين قدرت أن تضيف إليّ شيًا، إنما هي حروفك، وراءها تستتر، غافلاً أنها لا تُظلّ إلا ذاتها، واهيةٌ هي يا صديقي كخيوط العنكبوت، مهما حاولت، وبما أنك سارعت وأحكمت الإغلاق، فلا بد من أن أسرّ لك لِمَ الإلحاح في الاتصال؟

أمرٌ بسيط هو سيدي، فأمانة لي عندك أستردّها، وما أُحبّ تحويل الأمانات إلى عطاءات.
فلتجد طريقة تردّ بها ما اؤتمنت عليه، ولتغفرْ لي إلحاحي وإزعاجي، و قليلاً.. إلى روحك تلفتْ، ولها رصيدًا من الرجولة استوهبِ، لكنّ الرجولة صديقي، أصعب من أن تُشترى أو توهب حتى..

الرجولة حصن وأسياب عطاء، تفرعات لجذور ذات مرة غرسناها وحلمناها امتدادًا لنا ستكون.

عذرًا صديقي المتوازن، فأنا موقنة أنك فارس من فرسان الكلمات، وما أنا إلا شبح نقطة في ميدان فروسيتك، ولا بدّ أنَّ ابتسامة ضئيلة فوق شفتيك قد خطرت وأنت بنقاط حروفي ترشحُ ، وأنا أكيدة أن ذكاءك العظيم ذات مرة قد أنبأك،أني مِنْ خفاء ثقب جدرانك الصماء سأدخل، لأمانتي أستردُّ.



عالمان بلا نوافذ

- ما عدتُ طبيبة، تحولت إلى مجرد طباخة وخادمة، أُطبخ وأكنس وأمسح.

صوتها الهادر خفت قليلاً، وقد انصرفت تتابع صنع حلويات فاقت بها الكتب التي تستنير بها.

في مطبخها كُنَّا جالستين، رمقتُ طولها الفارع الذي تُزيده بارتفاع كعب لا تتخلى عنه، حتى وهي في البيت، تلبية لرغبة زوج يريدها أن توازيه طولاً، في وقت هي مقتنعة في أعماقها بأن بضعة سنتيمترات تخدع العين فتظهر الجسد أكثر رشاقة.

وجهها الرقيق الذي أضفى شعرها المُشقَّر عليه بهوتًا محببًا غمرني بشريط من صور تلاحقت، غرفة بسيطة تظلّ نافذتَها شجرةُ خوخ أصفر، عندما تتنهد تمتد بأغصانها لتظلل سريري المنكفئ تحتها.

أخواتٌ ثلاث كنّا ضمتهنّ غرفةٌ بسيطة، لم يكن في ذاكرة إحدانا زمن يتربص بأحلامنا وبسماتنا، فوق سريرها كانت تقبع دائمًا، كالقطة الناعمة تجمع أجزاءها في حذر، أصابعها في أُذنيها، أوفي خصلة شعر تَلُفُّها بعصبية لتحيلها نُتفًا، بينما عيناها تلتهمان كتابًا مدرسيًا، وأذناها مرهفتان لأيّ صوت، أوحركة، كان يحلولي تأملها؛ فأسترق إليها النظر، وعيناي أخفيهما في كتاب تستهويني قراءته، وأنا أُحاذر أَن أُصدر صوتًا، أومجرد حفيفٍ يُزعجها، لتقتني ببركانٍ من الممكن أن ينسكب في ثوان.

عُدتُ أَرقُبُها تَنقلُ خطواتها في المطبخ بأناقة وهدوء، تكوينها الرقيق يُخفي إناءً من بلور إنْ نَفختَ عليه يتحطم، والأشياء في مطبخها منتقاةٌ، ومنظّمة برقة، ورهافة ذوق متناهيتين.

عاد ذاك الزبد يتناثر من فمها أمامي، وألمٌ مكبوت يتفلّت: «كيف تخليتُ عن أحلامي؟ كيف قَبلتُ لشهادتي الطبية أن تُدفن بين جدران بيت وأوانٍ مطبخية؟»

أسررتُ في نفسي: إن حاولت تهدئتها سينقلب الوضع إلى الأسوأ.
تركتها تموج، علّها تخرج شيئًا مما في نفسها فترتاح، أنتِ لست كما تدّعين؛ فأنتِ ستبقين طبيبة، وقد أضفتِ إلى ذلك أمومة رائعةً لولدين مميزين بكلّ شيء.

زواجها الأول كان غير متكافئ، كلّ ذنبها فيه أنها أرادت إكمال حلمها الدراسي، وقد كلفها ذلك غاليًا، صبيٌّ حُرمَته، استُلَّ منها كخنجر مُدمّى، باتت أحلامها تقطر، رجعتُ أَرقب خطوها الرفيق بين جدران المطبخ الأليف،وذاك الصبيّ المُستلّ يشفُّ في ذاكرتي، وقد عاد إليها مُهرًا جامحًا في نفسه تتبعثر الأشياء بفوضى، سلوكه كان أشبه بجبل متعرج، في أخطر مراحله العمرية أتاها، المسؤولية تضاعفت، وحلم جديد بات يستصرخ الوجدان، صوتها عاد يصطبغ بنكهة الفلفل الحار:«ننجب الأطفال، قهرًا يُسلخون عنا، يعاودون رحلة الرجوع إلينا، وقد أُصيبت أرحامنا بالصقيع، لا نستطيع إلا أَنْ نغمرهم، وفي التلهّف ننسى كلّ شيء، فقط دفء الرحم يغمر المسام»

- أتذكرين ذاك البيت الذي سكنت فيه أعوامًا قبل سفري الأخير إلى ديار الغربة؟ والذي كان متسربلاً بأعشاش الحمام؟ أينما تنقلت كان يدميني الحصار، ضجيج الحمَام، وهويبني أعشاشه لا يغادر نوافذي، أحلام الشهادة المسحوقة، الصمت، الرتابة، معادلة انتظار مساء يغادر في صباحه زوجي الثاني الذي لا أريد أن أخسره، وطفلي الجديد الذي لا أريد أن أضحي به كما الأول، لكليهما أغلى أحلامي ركلتها، واستسلمت لقدري.

من عزلتي ذات مرة خرجت على مشهد غريب أسرَني، نسيت معه ضجيج الحَمَام الذي أرهق أعصابي، غفلت فيه عن أحلامي المسحوقة، وفي أفكاري ابنٌ انبثق فجأةً كبيرًا، وانزرع في خاصرتي قلقًا، رأيته هناك فرخًا شقيًا يطلّ من عشّ وبمنقار غضّ يلوّح للشمس، يرفض الطيران، ويتمرّد على توجيهات الأهل، يستكين لدفء القشّ، وفي أبوين من بعيد يرقبانه، وقشة في المنقار تدعوه،تُلحّ في دعوته، في إصرارهما لمحت حلمي المسحوق يورق، وقلقي لأفكار سودٍ يدير ظهره، أيقنت أن أحلامي لم تُسحق بل في أثواب جديدة توالدت، ومن عالمهما انبثقت لي صفحات من الرؤى، ما عاد الخوف ديدني، وما عاد المُهر غصة في إحساسي، وفيهما أبصرت طريقي وتلاشينا، عالمانا بلا نوافذ.

قبلة حاستي السادسة

وأشرق صباحان بعد اللقاء الأول، ربما لمرات ضئيلة انتابني مثل هذا الشعور، لا أُنكر أَنني جربت أن أُثبتَ مؤشر بوصلة حاستي السادسة لتنبئني، لكنها لّمحت إليّ مجرد تلميح، إنه ارتياح أكثر من عاديّ، لكنني لا أريد أن أُفلت له العنان فأُصابَ بالخيبة.

قد حدثني في اتصال هاتفي:« ما رأيُكِ أن يُسجل أحدنا انطباعه عن اللقاء الأول كلٌّ على حدة؟ وليكن أسلوبك بسيطًا في الكتابة، أرجوك، أخشى ألاّ أجاريك ..».

ضحكتُ في سري من ذاك «الجاهل اللماح»؛ فذكاؤه منذ الوهلة الأولى، منذ أن خُطّت شعيراته البيض، وعيناه معالم الطريق إلى عينيّ، أعلمني أنه يملك الكثير.

كانت تلك صدفة، فقد اعتدت أن أستقبل رسائل إلكترونية من جهات متعددة، لا أعرف من أين لها عنواني، لكنها أصبحت لي عادة وسلوى، وعبر إحدى تلك المواقع التقيتُكَ، لم أكن وقتها أبحث عنك، تأكّدْ أنه فضول؛ فقد وضُع الإعلان بطريقة لا بدّ أن تدفعك إلى تقصّيه؛ فضولي تنامى أكثر حين طالعتني مواصفاتٌ أبحث عنها في رحلة بحثٍ في داخلي، لا تستكين خوفًا من وحدة قد تُلقيني فيها الأيام على شاطئ مهملٍ نسيه العابرون، لا أُخفيك أَنَّ أول ما لفتني مركزك العلمي، وربما انتماؤك إلى بلد ترعرتْ ثقافتَهُ في كياني، وتشرّبتهُ حضارةً، وهارونًا رشيدًا، وأبا نواس، وندامى، ودجلةً وفراتًا، وربما هي مدينة تعمل فيها قريبة من مدينتي، فتجعل إمكانية التواصل أسهل.

وكانت معابثة مني، فقد كنتُ أيقنت أنَّ من دخل هذه المواقع، ولجأ إلى هذه الطرق قد رآها شبكة لاصطياد عابرةِ سبيل في أمكنة تغصُّ بعابري السبل والعواطف، أعطيت أول اسم خطر في بالي، مجرد اسم لِيُمَيِّزَنِي، لم أكن أدري أنَّ وقعًا خاصًا سيكون له، هو مجردُ اسمٍ لأنثى.

لم أنتبه إلى الاسم الذي عرّفتَ به نفسك إلاّ بعد أيام، وما صدقتُ أنّ رجلاً في مثل سنك يكون ما زال وحيدًا.

ظروف طرأت عليَّ جعلتني أبوح لك برقم هاتفي؛ فتحوّل تَرَاسُلنا إلى هاتفيّ رغمًا عني، في فترةٍ كان أجدر بها ألا تكون بهذا القرب، إلى أن التقينا؛ فقد خفتُ أن نَضيع في زحمة الأعطال التي كانت تصيب الموقع. لأسبوع خلا كنتَ في بالي، ولم أسمح لنفسي بالتفكير بك إلا سطحيًا بدون مسميات أو رؤىً عن مستقبل من الممكن أن يتوالد.

في يوم اللقاء كنتُ كالقوس مهيأة للانطلاق، لأكثر من مرة رغبتُ أن أقطّع تلك القوس وأصم تلك القيثارة، أن أتراجع، لكنني عدت إلى أيامي فوجدتها تنكفئ صامتة، وربما تمسكتُ ببريق واهٍ يمكنه أن يُسطِعَ قمرًا نصفَ مكتملٍ في سمائها.

يوم اللقاء أعددت نفسي، كأنثى عادية بأبسط زينتها، أناقتي التي لفتكَ كانت جزءًا من اعتيادي اليوميّ، منذ أن نُشّئتُ في الحلية، لم أُبالغْ، فقد اعتبرتُك مجرد لقاءٍ عابرٍ أنصتُ فيه إلى حديثٍ، أتأملُ روحًا إنسانية لفظها الله من عليائه لتعبث في الأرض..
تذكرتُ ما طلبتُه منكَ، ووافقتني عليه: «أن أراكَ عن بعد دون أن تراني»، وتذكرتُ تقديركَ لي، حين تراجعتُ عن ذاك الطلب بعد أن تكررت أحاديثنا، ورسائلنا الهاتفية.

كان الازدحام كعادته في هذه المدينة مزعجًا، ينهش الأعصاب، حاولت ألاّ أتأخر عنك حين تخيلت ما قطعته من مسافات لرؤيتي، اخترتُ شارعًا جانبيًا، فوصلتُ قبل الموعد، لم يكن ذاك في بالي، وما رغبتُ أنْ أراوغك بحيل الأنثى؛ فأتركك طويلاً في انتظاري، جاء اتصالك موافقًا لوصولي، وكأننا خططنا له، انسللتُ برجليّ إلى المقهى القريب، وعن بعد طالعني هيكل لرجل ببشرة فحميّة، وملامح أفريقية، داخلني شك سرعان ما غيّبته، «أن يكون أنت، رغم أن صورًا لك أرسلتها قد كانت أعطتني فكرة عنك».

أصابني الارتباك فاتصلت بك، وأحسست بصوتك يسبق ملامحك حين التفتُّ ورائي، كنتَ أيضًا مرتبكًا، وبعدها فسرتَ لي أنّني فقتُ ما تخيّلتني به لأيامٍ، وليالٍ، لعلّك أسررتَ إليّ دون أن تقصد بعالمك الخالي الذي تعيشه.

أربكني المكان المنفلتُ بالإضاءة، وبندرة زوّاره، ممّا سيجعلنا نهبًا للعيون في مدينة تتمسك بظاهر تقاليد متناقضة، تحدثتُ أكثرَ ممّا تحدثتَ، ولعلّه إشعارٌ مني بارتياحٍ أَوَليّ لشخصك الإنسانيّ، وطنك الجريح تحمله في عينيك، وفي صورة وجهك، وشاعريتك التي لا تستطيعُ إخفاءها.

– أريد أن أعرفكِ..احكي لي عنكِ من بداياتكِ، وعنكِ من أولى خطوكِ في هذا البلد.

كنتُ أود أن أبدأ معك صفحة جديدة من حياتي، فَلِمَ تودُّ أن تُعيدني إلى ماضٍ أعملتُ كلّ أسلحتي لأهرب منه؟ أزعجني ذاك منك، إلا أنك أرحتني حين تداركته بصورة لطيفة فأخرجْتَني منه.

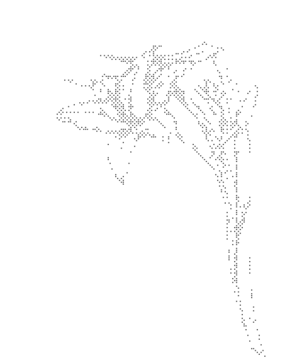
وكانت سهرة، طالت، تحدثنا، واستفضنا، ورغم ذاك كان الكثير في انتظارنا، ودَّعتني إلى بيتي، وأنت تحمل نتفًا من أنفاسي معك، وجزءًا من ذاكرة ثرية، ودّعتُكَ، وأنا أتسلّق دَرجي، ومنك أحمل شيئًا جميلاً لا أريد له تفسيرًا.

ربما كان جزءًا منك حملّتني إياه، لكنّ مؤشّر حاستي السادسة ما زال في مكانه يتراقص.

هتفتَ إليَّ:

– أنتِ هي من أبحث عنها.

وها أنا أحاول أن أجعل لمؤشر حاستي السادسة قِبلةً يتوقفُ عندها، وهذا يتوقف عليك.



بقايا عُمر

جَرْجَرَتْ رجليها، طريقها ثقيلة الخُطا، وهي تسير تائهة بأفكارها، وأحزانها، ومضات في ذاكرتها تحولت إلى مشاهد قصيرة وسريعة، مرارة وحزن وترمل ويتم، أطفال خمسة احتاجوا إلى بحار، ومحيطات، وبإمكانات متواضعة لم تطل النجوم يومًا،ولا دانت خطَ الأفق، أوصلتهم إلى بر الأمان، وبات لكل منهم مساره في الحياة.

ماذا أفعل؟ إلى أين أسير؟ انهالت الأسئلة، ورجلاها تقودانها إلى حديقة قديمة تشرف على شاطئ غصّ منذ القدم بأقدام، وأسرار لبشر عديدين، إلى أن مُسّدَ في محاولة لتقزيم ذاكرته، وإلى ركن قصيّ انفلتت مخلفة وراءها بيتًا تواثبت فيه أصداء، وأشباح وعلى مقعده ارتمت.

شيء جديد كأنه من حلم انبثق فجأة، لم يكن موجودًا بالأمس هذا الكشك، وهذا الرجل الذي في ملامحه انتصبت بقايا شيخوخة ترفض

الرحيل، اقتربتْ تتعثر بأشيائه المصفوفة هنا، وهناك بانسجام، وبخبرة عمر لوحات، وتحف خشبية ومعدنية، وكتب وجرائد قليلة، أما إبريق القهوة فقد قبع في ركن مهمل يرصد الرائحين والعابرين المتنزهين.. بنظرات متأملة، اقتربت من أغراضه البسيطة الملقاة معروضة للشارين «لم تكن تلك الأغراض لتجلب لصاحبها ثروة»، بينها وبين نفسها أسرَّت: «لا بد أنه مثلي يُخفف وحدته في عمل وهمي يملأ به فراغ عمر بعد أن وصل إلى سن التقاعد».

ويبدو أنه في الوقت ذاته كان يرى أن فنجانًا من القهوة يقدمه لامرأة متعبة وحيدة تسحّب خطاها، لا يضير في فتح حوار ربما يطوي دهرًا، ومحطات قلما يحظى بها البشر.

حدَّثَتْهُ عنْ حاضرِها، عن الأصداء، والأشباح التي تلتف بذكرياتها في بيت كان يومًا كبيرًا، بني بتآلف زوجين، ودمعتين، ونَظْرَتي حب، حدَّثَته عن آمالٍ وأمنياتٍ دُفنت في جدار قبرٍ أحمقٍ لم يعدْ يحمل إلاّ اسمًا لزوجٍ، وبضع كلمات تقادمت فلم تعد تعني أحدًا، عن أبناء أسعدوها، وببعدهم شُقيت، عن مراكب خمسة أشرعت للريح أبوابها، وعندما يُناديها الحنين تعود للمرفأ الأم، لترتاح أيامًا، ثم يطويها السفر.

حوار بسيط امتد دافئًا، وبصمت اللوحات، والفناجين، وأشياء أخرى أخذتْ تُنصت، وتترقب، غَفلا معًا عن عمر زمني، عمّن ينتظر وراء أسوار الحديقة وأشرعة المراكب.. وحدها قُوى خفية في تلك اللحظات كانت تتهاتف.. قوى الأرواح معها، تُحمل إلى ملكوت غريب.

تحوَلَتْ قدماها إلى ريشتين، وقطرتي ندى تتواثبان عصر كل يوم إلى مقعد، وإبريق يرقب صامتًا، إلى حديث غرّد نغمة حبّ في قلبين ينتميان إلى زمن يَعتبر المسنُّ كيسًا باليًا لا يلبث أن يُلقى به في حفرةٍ، ثم يُهال عليه التراب.

صار العصر من كل يوم جميلاً، محببًا لنهاياته، مساءات أكثر أُنسًا.. لفنجان قهوة الغريب كان فعل السحر أشرق مؤنسا، فإذا به وهمًا تكفن في موت جاء يقترب متلصصا.

حَملتُ لهفتها إلى مقعد الحديقة، فوجدته حزينًا، وفنجان القهوة هناك رأته متروكًا.

في الجو رائحة لا تغيب عن البشر في أواخر العمر، الخطوة غدت أثقل من قبل، وقيد ما أطبق على الصدر، الكشك، اللوحات، كل ما في الصّوب واجم، ومن ورائها أصوات بعض المتنزهين تصيح:

– لقد مات، مات أبو بكر.

في تلك اللحظات تراءت لعينيها صورة لكيسٍ بالٍ، وبقايا وهم وراءهما تهال أكوام من التراب.

لملمتْ عباءتها الطويلة ومنديل رأسها، وفي بيتها المعانق للأصداء تلقفَتْهَا ينابيعُ دموع.



الوجه الآخر للملاك

أطلتْ «غصون» بوجهٍ متردد مذعور يلاصق في انفعالاته الناظر إليه منذ الوهلة الأولى، من رأس سلّمِ سكن المُدرّسات، تصيح:

— من ؟ من بالباب؟

— أنا.

ادّعتْ أنني باغتتُها، رغم أن خبر انتقالي إلى سكن المدرسات كان قد وصل كعادة الأخبار في تلك المنطقة بلمح البصر، حاوَلَت أن تتجاهلني، أنا أعرف السبب، فهي تخشى أن أُساكنها في غرفتها، حيث كانت كلُّ معلمة تعمل جاهدة، وبطرقٍ شتّى على الاستئثار بغرفة حَسبتْ أنها استملكتها لمجرد أن كانت إليها السّابقة، فكيف وقد كانت «غصون» ساكنة لا تقدر أنثى على تحمّل معاشرتها، حيث تجعلها تكره أن تطلب الراحة في مكان هو حقّ لجميع الساكنات، فتفرّ هاربة من نظراتها المتهمة من حولها باستمرار.

«عبير»، من معلمات السكن، كانت إحدى ضحاياها، واحدة من الإناث، رقيقة ناعمة الحركة والابتسام، نحلة وردية الأديم، لاسمها الحظّ الأوفر منها؛ فأينما حلّت ترحّل الأريج، بخفة الفراشة وقت السّحَر تقفز سلالم السكن إلى المطبخ المقابل لغرفتي، وحين قُدّر لها أن تشاركها الغرفة كان ذاك إيذانًا بموعد أوّل مع الشقاء، وكثيرًا ما هربتْ إلى المطبخ، أو إليّ في الطابق السفلي دامعة، شاكية، وببضع من الكلمات، والأحاديث كنتُ أحاول أن أُخفّفَ عنها، مُبررة لابنة بلادي تصرفاتها.

أمّا نصفُنا الآخر، «فلغصون» معه حكايةٌ فيها من العجب والظرف ما يجعلك تتبسم من بعيد لصوت تحتار في غنجه ودلاله، صوت يجعلها تصل إلى ما تريد دون عناء وإن عبر أسلاك الهاتف.

لا أُنكر أنني كنت من المعجبات بتحولها البديع، ووجهها الرقيق حيويّ اللفتات، تتسابق الفكاهة على لسانه، تسابق الماء منهلاً بين ضفافي جدول، لكن ما يعكر صفوه هو نظرة بلهاء لا تفارق عينيها إلا لتعود إليه مكتنزة بالذعر.

لماذا أنا وهي؟ أتراه قَدر لنا رُسمَ، أم مجرد مصادفة؟ فهما مرّتان جمعتا بيني وبينها، في أُولاهما، تبادلنا مكان الإقامة إثر رسالة إدارية حمّلتني إياها المنطقة التعليمية إلى تلك الجزيرة الخليجية النائية المتراخية على شاطئ

بحر رحب، فسيحة منتهية إليه باطمئنان، ورغم أن الانتقال الذي حظيت به «غصون» كان حُلم الكثيرات، إلى مدينة نموذجية صغيرة تُعد عاصمة تلك المنطقة الصحراوية، يعيش أهلها بدعة يحسدهم عليها الكثيرون من الوافدين، ورغم أنها كانت تتذمر من المكان الذي عُينت فيه، إلا أنها والشك ديدنها لابُدَّ أن تُبادر لاستشعار الشر،وإن في رسالة خير.

سألتني:

- لم أنا بالذات؟ و لم أنت التي نُقلتْ مكاني؟ ونظرة الذعر تلك تكاد تقفز من عينيها لتفتك بي.

أنا أنفذ ما طلب مني كما تعلمين، أجبت، وأنا أواجه عينيها المذعورتين بثبات رغم أنّ نفسي كانت تضطرب بأعاصير بكاء بمجرد أن طالعتني وحشة المكان، وصمته المخيف، وغصة تمنيت معها لو أقفل راجعة إلى بلدي دون حساب لحلم مني قد يُهدر.

وكرر القدر مع كِلتينا تجربته المُرّة، فرسم لي لمرة أخرى التقاءها،وعيشًا أطول بقربها في السكن الجديد في تلك المدينة المتفردة دون سابق إنذار. دعوتها عشية انتقالي،لنتجوّل معًا في محاولة تعرّف مدينة سأعيش فيها ربما لسنوات، مدينة أدهشتني بمساحة تكوينها الصغير، وتميزها في التنسيق والاخضرار، لوحة لفنان أُلهمَ الوحيَ من السماء، دُهشت حين أفهمتني أنها لا تعرف طريق العودة إلى السكن، رغم أنها فيه مقيمةٌ منذ شهور.

في طريقنا وصلنا إلى سوق مركزيّ يؤمُّه الجميع، وعندما أردنا شراء أشياء بسيطة بدريهمات استغرقت «غصون» وقتًا وهي تفاصل بائعًا مسكينًا، دليلها السياحيّ ملامح ملائكية وارت عمر صاحبتها الحقيقي برقة، وبعذوبة طغت على شعيرات قليلة بيض تكاثفت في حاجبيها، تصبغهما دائمًا، وضحكة مغردة لا تُقاوم، وكان لها ما أرادت، في وقت دفعتُ أنا فيه الثمن الذي طلبه البائع للسلعة ذاتها بلا نقاش.

وكان يومًا، أبصرتُها فيه تَقلب الدنيا رأسًا على عقب، عندما فَتَحتْ ثلاجة السكن فرأتْ وعاء غدائها مقلوبًا، وكان بسبب ازدحام الثلاجة بأواني المقيمات، راح صوتها يتعالى باهتياج، ووجهها يتلون، وحاجباها اللذان نسيت صبغهما يرتفع أحدهما فوق الآخر في محاولة شرسة لافتعال مشكلة كبيرة من سبب تافه:

- مَنْ تلك التي قلبت وعائي؟ من التي تجاسرت بمدّ يدها إلى طعامي؟ سأُريها ما تستحقه.
- من تمدّ يدها إلى طعامك أو طعام غيرك؟ لابد أن الوعاء انزلق بفعل الضغط المتزايد في الثلاجة.

ردّت معلمة من المقيمات بهدوء، وهي تدير ظهرها منصرفة إلى غرفتها، ويبدو أنّ التّصرف أهاج «غصون» أكثر، حيث تزايد ارتفاع الحاجبين حتى كادا يفران من رأسها، وتوالى سيل من ألفاظ انفعالية غريبة، بينما

بقية الساكنات يرمقنها بنظرات مستهجنة تحمل ردودًا صامتة، وهي تستعمل لسانها بحركات طفولية غريبة مستهزئة من الجميع.

«غصون» لم تكن تلك الشجاعة أبدا في مواجهة موقف، جُبنُها شديدٌ تُغلّف به نظرات مفضوحة للجميع إلا لها.

خبرٌ عاجل ملأ السكن، مُدرّسة ستُنقل إلى مدرسة، أو منطقة أُخرى، استشرى الرعب في الصدور، وقد كانت تلك الأمور تحصل دائما دون اعتبار لوضع نفسي كانت المدرّسة قد رتبته، وأقلمت ذاتها معه، إذ إن ذاك الظرف آخر الهم، فالمصلحة العامة هي فوق كلّ اعتبار، وغالبًا ما كان ينفّذ هذا الأمر على العازبات منهن، ومَنْ هُنّ في حكم العازبات، مِنْ واحدة اقتضت ظروفها أن تُفارق خطيبًا، أو زوجًا،أو ولدًا باتت تعيش ذكراه، وتتنسم رائحته عبر أسلاك ورسائل هاتفية جامدة نفرَ منها الشوق، وبردت فيها لهفة اللقاء، وأخرى لملمت آمالها، ومشاعرها في منديل جافّ رطّبته بدموعها الخفية في جُنح ليلٍ أغبر.

وأُشيع أنّ «غصون» هي المبلَّغَة بالنقل، سارعتْ إلى إدارة المنطقة بوجه ملائكيٍّ، وضحكة مِغناج لتلفتهم إلى انتمائي إلى فئة العازبات، رغم التزامي بمسؤوليتي الكبيرة تجاه ابنتي التي كانت حينها في الثانوية العامة، وأيّ تزعزع في نظام حياتنا سيخلق بلبلة كبيرة لكلتينا.

عند «غصون»، المنفعة الشخصية تتربع كل ما عداها، وتلغي أي أمرٍ مهما كان ذا شأن، وكانت مفاجأة، فالنقل كان لها، وإلى مكان لم يكن بحسباننا جميعًا، وأنا بُلِّغت بتسلُّمي مكانها في العمل، في المدينة الصغيرة ذاتها، بفارق خطوات عن سكني.

مرضٌ شديدٌ أَلَمَّ بالفتاة، ضحكتها المغناج شحبت، وغيمة رمادية اللون وارتها، وذؤاباتها تصرُّ على استشفاف النسيم، إصرارها على الفرح كان يأسرني، فالإنسان أروع ما يكون متألمًا،متشبثًا بالبقاء، أثارتني مرارًا بآلام كانت تكبتها رغم اتكاء واضح على رجلها اليمنى، خشية الشماتة، وممّن؟ من ساكنات الدار اللواتي يقاسمنها الهموم والآلام، وكل منهن تنوء بأثقال من القروح تجترّها في انفساح الدّياجي، مرضها ترامى خبره في المناطق المجاورة؛ فتوالت صدقات من أهل البر والإحسان، وكأنهم وجدوها فرصة للتكفير عن خطايا صغيرة، وكبيرة طمروها في سراديب النفوس، وكثيرًا ما كان يُقرع باب السكن بإلحاح؛ فأضطر لفتحه، فتطالعني صينية واسعة من الطعام، عرض عليها أهل الجود بعضًا من أطايبه، ولا يتعدى الأمر دقائق بين فتحي للباب، وإرشاد الحامل إلى الطابق العلوي حيث تسكن، إلا وأراها تتحامل على عكازها هابطة جزءًا من السلم العلوي، وعيناها تمشطان السكن خوف أن تتوه تلك الصينية عنها، منادية بصوت لا أدري من أين تأتي به رغم ضعفها: «دعيهم يُصعّدوها إليّ».

ما خطر لواحدة من المقيمات مرّة ما يحصل في الأسفل، فبحكم إقامتي فيه كانت الأحداث تستقبلني، وتخفى تفاصيلها على الكثيرات اللواتي كنّ يتسابقن لحمل ما يصل إليها، وتقديم ما أُمكن من عونٍ، إلا أنهن كنّ دائمًا محطَّ تقصير واتهام.

«قدرية»، إحدى ساكنات هذي الدار تَحضُرني بروحها الشفافة، وقُد قُدّر لها أن تلعب دورًا إنسانيًا عظيمًا في محنة «غصون»، كلما ذُكرت «قدرية» يزداد إحساسي التصاقًا بإحساسي، إنسانةٌ، الطِّيبُ معدنها، والجودُ مسكنُها، إيمانٌ لا يبارح وجهًا صغير الملامح، ورضًا يتفاعل مع نفسٍ تُميتُ صخب الرغبات في دفء العطاء، تناستها أُمومة فعوضتها بشتلات تزرعها، وبتراب حديقة السكن تلملمه بحنوّ ما له مثيل.

بغريزة أنثى تهدهد أحلام الحبّ والزواج، لها تتهيأ بصبغ تفاحتَيْ وجنتيها بعد كل حمّام، بأحمر زينة بسيط يحمل في ثناياه تلاوين عشق، وورد، وتطيل انتظار خاطب ينقر الباب، وفي يديه خاتم يمرّغها به في أحضان الهوى.

«قدرية»، واحدة من معلمات كثيرات حَدَّدْن لهن هدفًا من هذه الغربة، فحرَمْن أنفسهنَّ من أبسط المتع المادية، واكتفين بمتع روحية هي الأسمى في الوجود، أتذكرها تحثّ خطا الليل البارد إلى المسجد القريب لتصلَه

بصبح ركنَ فيه العديدون إلى الكسل، والاسترخاء، تروي شتلات حديقة السّكن بهدوء رائع، وبيدين خشنتين تلامسانك، فتنهلُ حنانًا واطمئنانًا، وتفتّحان جرار الشوق، فتسيل دموعُ لهفةً وترقّبًا، ما أكثر ما صبرتْ على أذىً من «غصون» بسكينةِ مؤمن، وحنوّ أخت كبرى، تغسّلها، تكسوها، تداويها، تُسرّح شعرها، وتذهّبُه لها بغدائر شمسٍ براقة، إذ طالما حَلا «لغصون» كلَّ ما يبرق، لها كانت عكازًا جريحًا،وميدان دمار، واستثناءاتٍ من الهدنة.

وغابت «غصون» عن العيون، شبحًا أطلّ وسط لجّة، وغادر بعيدًا وبلا إنذار، حتى عن «قدرية» التي كانت تلازمها سواد ليل، وضياء نهار.

تفقدتُ هاتفها، نادرًا ما كانت تجيب، وإن كان، فباقتضاب، وتفلّتٍ وفير، تناسيتُها، هذا ما كانت تريد، لكنها على بالي كانت تعنُّ، لاسيما أنني افتقدت صوت مسجلها الذي كان يصدح بأغانٍ متنوعة أيام العطلات، التي كثرت في تلك الفترة عبر ظروف طارئة حملت الفرح لساكنات الدار اللواتي كنّ ينتظرنها كما ينتظر الأطفال هدايا العيد.

نافذتها الصغيرة كانت فوق بابي الواسع المشرف على فسحة إسفلتية خشنة، كانت المتنفس لي حينما أترك الغرفة لابنتي تدرس بهدوء، فأسرّح فكري في صفاء الصحراء وسخونة العتمة.

توالتِ الأيام بطيئة الرّجع، ما بين عملٍ صباحيّ، وتحضير لأعمال اليوم التالي، وأخبارها مقطوعة عن الجميع، فمَنْ تُذيع أنها تُعالَج من مرض عضال، ومَنْ تسرُّ أنّ الوزارة سفَّرتها على نفقتها إلى إحدى الدول، ومن تُشيع أنها ادّعتِ المرض لغاية.. خفية إلى أن هدأ الحديث عنها في زحام الحياة والمشاغل، كنت أصدف «قدرية»، تستمتع بثمار ما شتلتهُ وقد غدا أُكُلاً، وتُفَّاحَتا وجنتيها تتزايدان تأجُّجًا بعد كل حمّام..

إلى أن قدم ذاك الصباح، فيه شُقَّ بابُ السكن مُصدرًا أنينًا موحشًا أشجى الجميع، لبرهةٍ لم أستطع تبين طيفٍ باهتٍ قادمٍ من بلاد النور، حتى تلك النظرة المذعورة بحثت عنها لأستبين صاحبتها، فرأيتها هناك قابعة في ركن لا يكاد يُلمح عبر نفق طويل أشد قتامة ووحشة.

ذراعان بارتخاء مؤلم تبينتهما، مُلقاتان بجهد على خشبة انتصبت عمودًا هرمًا ناء بأثقال دهور، كانت «هي» قد عادت متسحِّبةً كما عوّدَتنا، وبمفاجأة جديدة، فهذه المرة لا كما تلك، وشيء ما أناخ نظرتها المذعورة، في ركن قصيّ قابعة مستكينة.

بصحبته عادت، شابٌّ يتقاطر عنفوانًا، حَمَلَهَا مترفقًا مُتسلقًا بها السلالم الحجرية إلى الطابق العلوي في هيمان ملائكي غير منتظرٍ إذنًا لاقتحام دار تغصّ بالساكنات الإناث، ثم عاد من حيث أتى، لا أحد يدري كم

بقي فوق ولا متى نزل أو خرج؟ ولا لِمَ لم يكررُ زياراته؟ فدخوله لم يثر التقوّل، الكلّ حسبوه نفرًا من المسعفين، وليس من المعقول أن تُثار تساؤلاتٌ في مثل هذه الظروف، وسيارات الإسعاف تقودها عناصرُ مُذكّرةٌ، والمساعدون فيها تَغلبُ الذكورة فيهم نون النّسوة..

واسترجعت الحياة ذاتها تطحن الناس، تنسيهم حتى أسماءهم، تنسَلُّ المعلماتُ في الصباح من أسِرَّتهنَّ ببطء، يباشرن العمل، وحرارة السرير تدفّئ أجسادهنّ، إلى قرقعة الأواني، وهدير غسالة كهربائية يدوية يتيمة، وبضع من عباراتٍ في فترة الظهيرة يتناقلنها، وهنّ يحضّرن طعامًا سريعًا، إلى استرخاء الزمن ساعة الظهيرة، وقد يتعالى ضجيجٌ في المساء حين تستنفر الأجساد طالبة تجديدًا بدونه تهترئ الأرواح.

«غصون»، لم تعد في بالي؛ فغياب حضورها أسلاني عنها، هي أخبار بسيطة كانت تصلني عنها من «قدرية»، كما أنني كنت أتحاشاها إشفاقًا عليها من نظرة تقفز إلى عينيها متى ما لمحت واحدة ممن يُقمنَ في السّكن، «قدرية» وحدها كانت قدرها بوجهها المبتسم بطيب وبكفين معروقتين تختصبان انكبابًا وزخمًا.

«غصون» ،غابت، وكان الغياب وراءه أُفولُ البراكين بعد طول اهتياج، غابت في دثارِ رؤىً وتخيّلاتٍ وحفيداتِ أفكار، وقد فرحتْ بما استُوهِبتْهُ من أهل برّ وإحسان.

تكاثفت الأقاويل، أاندثرتْ؟ أم ماتتْ؟ أغلب الظن أن روحها بصمت وبشجو نُثِرت فوق المدى خصلاتٍ من خيوط ذهب، تتهادى من كفين معروقتين في كفن المغيب.



وريقات العطر

لست أدري ما الذي جذبني إلى هناك؟ إلى وريقات العطر التي استلقت باستكانة داخل إناء زجاجي شفاف أودعته أسرار أحاسيسي، أحسست أنك تناديني وقد استشعرتَ مللي وضجري ورتابة ما حولي، تريد أن تشغلني بأنفاسك، وتخفف وحشة انتظارك.

وريقات حملتها إليَّ من سفرك الأخير حين كان الحب دليلك السياحي في تلك المدينة، التي قصصت لي عنها قصصًا قاربت الأحلام في غرابتها، ذاك الحب الذي جعلك متلهفًا محتارًا، ماذا ستحمل إليَّ من الهدايا لتشعرني بحضوري في كل حين؟

طافت برأسي أطياف، وناجيت نفسي بأحاديث لا تنتهي، لكنني في أعماقي أحسست أنني دافئة حتى الوَلَه، وأنا أضيف وريقاتك العطرية إلى كأس من شاي ساخن بات مؤنسي صباح إجازاتٍ أسبوعيةٍ أَفرغ فيها لذكرياتي.

لِمَ إذًا شعوري بالوحشة إلى هذا الحد؟ لِمَ شعوري بضيق ما حولي؟ رغم أن عبق أنفاسك قد استلقى عليها محبًا، وعاشقًا، وراغبًا بإبعاد كل ضيق عني، ورغم أنني أستطيع أن أفتح الباب، وأنطلق إلى حيث أسلو وحشتي، فلا شيء يمنعني، فلا أبواب موصدة في وجهي، ولا طرقات تضيق بها قدماي، حانت مني التفاتة إلى صورة لك جعلتها تؤنس خطواتي أنّى اتجهت في بيتي، فرأيتك تعاتبني، وفي عينيك شلالات هي أشد احتياجاتي في هذه اللحظات، «لم القلق حبيبتي؟ أنتِ معي في كل ثانية، في أفكاري، وحروفي، وفوق سطوري التي أكتبها، لا تشغليني أرجوك، أحتاج إلى هدوئك لأتابع عملي، أحبك».

تذكرت لقاءنا الأول في المطار، كان قلبي يخفق بشدة حتى غيّب عني كل دعاء تمتمتُ به لأتماسك، ما دفعني إلى لقائك صوت لست أدري من أين جاءني؟ من سَواقٍ عابرةٍ، من محيطاتٍ غريبةٍ أنفاسها ولَهٌ، وعنبرٌ،عنبرك ذاك الذي عرفته بمجيئك قبل أن تهديه إليّ لتتنسمه أنفاسي، ويتعشقه جلدي، أتيتني به من تلك المدينة الغامضة التي امتزجت بأحلامي، وذاكرتي نقشًا خبأته بحرصٍ، وحنوٍّ كبير اعتدته لهداياك خوف أن تراه عطوري، فتغار منه.

أستحضر الآن تفاصيل ذاك اللقاء، حين راحت عيناي تتفحصان كل قادم يحمل شيئًا من ملامحٍ اختزنَتها مخيلتي عنك، ملامح حفظت منها ما لا

يمكن أن أتوه عنه يومًا، ملامح لعينين صافيتين، ورسمٌ لكفين كانتا أول عناقنا، مرت ساعات، وأنا أتنقل بين أطراف القسم المخصص لاستقبال القادمين، ورجلاي تئنَّان من الوقوف، تطلبان راحة بخلت بها عليهما خوف أن أتيه عنك.

والتقينا، كان لقاءً باردًا مترددًا، حين رأيتك تتجه إلى أخرى فيها رأيتَ شيئًا مني،ورددتُ اسمكَ، وأنا أتحاشى أن أنظر في عينيك، لا أذكر إن كنا قد تصافحنا، كل ما أذكره أن ارتباكي وصل إليك شيء منه، ارتباك أنساني أين أوقفت سيارتي حين قدتك إليها؟!، لا أُخفيك أنني تحاشيت النظر إليك قصدًا؛ فشيء ما كان هناك أخافني، وكنت أود أن أهرب.

أتُراك لاحظت اضطرابي وقتها؟ أم أنني كنت أكثر مهارة حين أخفيته عنك؟ أنقَذْتني بكلماتك: «ما رأيُكِ أن نجلس في مكان هادئ؟ أود أن نتحادث».

كطفلة صغيرة سللتني من يدي إلى ذاك المكان، الذي وصل ضجيجه إلى الشارع وكاد أن يعانق السماء، ما الذي حولني إلى طفلة صغيرة تنسى اضطرابها كله في يدك؟

الآن عرفت، عرفت ما جعل رجليّ تحتملان الوقوف المؤلم في المطار، ما جعلني لساعات أُصغي إليك رغم عنائي في التقاط كلماتك وسط الضجيج حولنا.

كنت تحكي، وتحكي، وأنا أهيم في تفاصيلك، أتجرأ على الاقتراب منها خطوة خطوة، وتلك الصفحات التي حملتها إليّ لأعرفك من خلالها، ومن خلال ما تكتبه عنك الجرائد من تعليقات، لم أكن أراها وهي ملقاة أمامي، رغم يقيني أنك حرصت على حملها إليَّ، وفي داخلك آمال كثيرة، أتُراكَ أنت أيضا خشيت أن لا تجد طريقًا إليَّ إلا من خلالها؟

ناجيتك في نفسي وأنا أنظر في صورتك: «أَتعْلَمْ؟ ليتك تحملني الآن إلى ذاك المكان الذي يعانق بضجيجه السماء، ليتك تعود وتجرجرني كطفلة صغيرة منقادة إليك بأمان». رددت عليَّ بابتسامة رقيقة وصلت إليَّ من عينين صافيتين: «تأكدي حبيبتي أنني أشد شوقًا منك إلى ذاك المكان الذي جمعنا لأول مرة، إلى أن تستكيني كطفلة صغيرة في أصابع كفّي».

كنتَ تتحدث عن نفسك كثيرًا، عن أعمالك، ونجاحاتك، و لم أكن أستغرب حديثك؛ فأنت وأنا غريبان رغم انتمائنا إلى بلدٍ واحد، جمعتنا ظروف معيشية متشابهة، فتجرعنا حلاوة غربةٍ، لو كنا صادقين مع أنفسنا لاعترفنا أنها لم تكن إلا العلقم.

لم أكن معك فيما تقول، كنتُ معهما، أناجيهما كمن لا يرى غيرهما، كلّما رفعتهما تساند بهما حديثك طِرتَ بي أكثر، لم أكن أراك أبدا،أو ربما كنت أراك من خلالهما، وأسأل نفسي: «أيمكن لقصة عشقٍ أن تبدأ منهما، من مجرد كفين؟»

هما في خيالي، تنتقيان لي الوريقات العطرية، وتتحسسان المفرش الجميل، والقناع الخشبي، والعنبر، والعديد من أشياء تمنيتها لي.
أسمعُ همسهما للهدايا بحكايتنا، تغريانها بالسفر معهما، أتخيلهما تحرضّان السُحب على ريّ الأراضي العطشى حروفًا من أبجديات العشق والوَلَه، أتخيلهما تنكفئان كريشتين حالمتين اشتاقتا للسفر، لعناقي، ولاحتضاني.

وها أنت تعود، لكنك اليوم بدوت لي غريبًا رغم كل محاولاتك في الاقتراب مني، بادرتَني:«لَمْ تفارقيني لحظة، تعشقتِ أنفاسي، وأحلامي، وعشتِ حتى مع أصدقائي».
تبسمتُ حينها وأنا أجيبك: «حقًا»، ووراءها ألف إشارة استفهام.

كنت كعادتك تسرد لي حكاياتك، وأخبارك الشائقة، وعيناي كانتا تبحثان عنهما، عمّن بهما انبثق كل شيء، لِمَ رأيتهما هناك مصدومتين؟، مصابتين بالخيبة؟ توسعت حدقتاي إلى أبعد مدى تبحثان عن امتلاء كان يسحرني، رأيت كل شيء في ذاك الوقت خاويًا هشًا، مجرد وهم امتلاء، جلدًا منتفخًا، لا يمكن أن يكون أبدًا وسادة طرية لراحة أنشدها، ووصلني للتوّ أنين، وحطام لجدار شفاف أودعته أطياف الأحاسيس، والأسرار، تلفتُّ فإذا بها وريقاتك العطرية تحولت إلى إبرٍ تلاحقها وتدميني، أيقنت في تلك اللحظة أننا نختلق وهمًا نعيش تفاصيله، ورغم أننا متأكدان من

زيفه نستمرِئ العيش فيه، ونجترُّ أيامنا مستسلمين له، يقف ساخرًا من بلاهتنا، وغبائنا.

أسلمتك يدي هذه المرة لتعود وتجرجرها، لا كطفلة تنشد الأمان بل كنعجةٍ مسكينةٍ تسوقها إلى أقرب مسلخ.

ملامح لوجه مغادر

كل يوم أقفز تلك الدرجات المسطحة، لا جديد فيها سوى وجوههم، هي دائما كانت تتبدل، وكنت أستغرب في نفسي: «لماذا تتغير تلك الوجوه باستمرار، وتتبدّد كما يتبدّد السواد في كل شروق؟

بيده يمسك عصًا في نهايتها خرقة تآكلت، وبهت لونها فباتت، والخرائب تنتميان إلى عالم متماثل، يمسح بها درجات طويلة جيئة، وذهابًا،وقد ثبت بنظره في مكان لا يحيد عنه، إلا ليرد سلامًا يُلقي به أحدهم إليه، وكثيرون يمرون به غير ملتفتين عائدين من عمل أنهكهم فآثروا الصمت في بلدٍ تزاحم فيه الخرس، ومن يناجون أنفسهم.

كثيرًا ما كنت أحسب أنّ تفكيره قد تعطّل لمساحاتٍ لا تتعدى درجاتٍ، وبوابة زجاجية يتفنّن في تلميعهما بطريقةٍ ودية، وقد أضحتا معًا كل عالمه، لا يجتاز بعدهما حدوداً.

وكنت أنتظر مرة ألاّ يطالعني وجهه، وجه عامل التنظيفات الهنديّ الأسمر في التوقيت اليوميّ ذاته، حين أصعد الدرجات عائدة من عملي، تمنيت مرة أن أجده، وقد ألقى عصاه، أو عانق كوبًا من الشاي، وانتحى به ركنًا يستمع إلى أغنية، ولطالما تراءى لأذنيّ أنه يدندن لحنًا وقت الظهيرة تحت شجيرة التوت كما العمال في بلدي، لكني أستفيق من حلمي البسيط لأرى تلك النظرة الجامدة المسطحة لا تفارق ملامحه.

مسمياتُ صداقاتٍ يوميةٍ مساحاتها ثوانٍ، كنت قد عقدتها في غدوّي، ورواحي مع تلك الوجوه التي ألتقيها في المواعيد ذاتها، كتلك التي عقدتها مع مصعد بنايتي، وباب شقتي، والممرّ المفضي إليه، والشوارع الكئيبة الغاصّة بعمارات شاهقة، و ركام سياراتٍ تختنق بأنفاس حرارةٍ لاهبةٍ، لم تكن تلك الصداقات إلا بضعًا من كلمات تحية، ربما أتجاوزها للسؤال عن الحال بلغة هي مزيج من أحاسيس بشر متراصين هنا، وهناك، بلكناتهم، وروائح طعامهم،وأجسادهم التي تولولُ بتناقضٍ غريب مشاعر فرضتها علي إنسانية دفينة، جعلتني لا أراني أختلف عنهم في الكثير رغم ارتقائي عن الدرجات المسطحة إلى عقول، وأفكار تبيّنتها أكثر تسطحًا.

ذات مساء، وجهٌ من تلك الوجوه جاء يقرع باب شقتي، تغمره ألفةٌ لا يستشعرها العديد من البشر، شيءٌ ما رأيته يكاد يقفز، يعانق فرحة منطوية لسنوات بين البلاط والعصا، بحروف مرتبكة لم أفهم أغلبها جاء يودعني،

قرأت في عينيه ما لم يكن لسانه بحاجة لشرحه، ما يتخطى كل الحواجز التي تُبنى بين أبناء البشر.

للحظات، سُحب ضبابٍ قد خيمت تنذر بالأسى، فراق المألوف، هو اعتياد البشر في هذا الركن من الكون.

أغلقت بابي وراءه، وفي خلاياي بركانُ صمتٍ أخرس، وعيناي ترسمان ملامح لوجه جديد.

هو منْ أريده سلطانا

وأنا له شهرزاد

وانقضـــى مساء جديد.. العتمة تلقي سترًا شفافًا وغيم وراءها يسترق نظرات خافتة أما أضواء البيوت فهي حولي شاحبة، ورويدًا رويدًا تتفجر عن عهر مكبوت..

ابنتي في غرفتها تعانق مدفأة بشمعتين، وفيروز تغني:

«بيتك يا ستي الختيارة بيذكرني ببيت ستي تبقى ترندحلي أشعارا والدنيي عم تشتي»..

شققت الباب.. أعرف ما وراءه.. ضوءُ مدفأة شاحبٌ وابنتي تعانق ركبتيها.. هي وفيروز تتوحدان كل مساء في الموعد ذاته.. أحبُّ أن أعابثها.. ردة فعلها أتوقعها حين أشعل ضوء الغرفة من توحدها الجميل أسحبها وتصيح: لا.. أطفئيه.. أرجوك.. عيناها لا تريد لهما أن تتعكرا بأيّ إحساس آخر.. وحدها وفيروز.. أعانقها، ورأسي على كتفها أسنده.. كلانا وفيروز وضوء المدفأة الشاحب..

لهواها أتركها.. أنا وفيروز لهوى آخر في غرفتي نستكيين.. للحظات تخصني.. أوثقها.. أخشى عليها من ذاكرة قد يهدرها الأفق..

مشـــتل الزهور الجميل ذاك عليه يشرف بيتي، وبيوت جيراني..في الصباح رائحة قهوة حارة منه تتعانق، وأبخرة الزهور.. يد عامل بسيط تحملها.. تتّبعتُ الأبخرة.. للحظات ساقتني رغبة ملحة أن أدعو نفسي إلى شفة قهوة.. تتّبعتُ الأبخرة.. في بيت بلاستيكي شفّاف رأيتها تتجمع ووحيدة أنا على شرفتي تنساني..

جارتي تطل على مشتلنا الجميل.. فيها من العهر ما يقلق تناغمه الجميل.. لست أدري لم يستفزها تناغمه و لم بينها وبين رقته أسوار من الشوك؟.. لعهرها شكل آخر غفلت عنه قوافل من النساء في هذا الزمان.. تمعنت في صورة وجهها اليوم.. هي بمسمى الأنوثة أنثى منسجمة الملامح.. أدركت أن للعهر شكلًا واحدًا بتعدد صنوفه فجارتي لا تبيع جسدها.. صوتها وصراخها و ألفاظها البذيئة على زوجها وبيوت الجيران تنهال بلا ثمن..

تلك العمــارة التي تلوح قريبة بالمسافات والمشاعر إليها واجب يشدني قسرًا وحينًا برغبتي.. في أغلب الحالات هو واجب.. هذا المساء عنه سأتغاضى يكفيني ما قدمته الأمس وقبله! عائلتي في غرفة زجاجية تجلس،وللشارع جميعنا متكشفون رغم الستارة المسدلة.. كلّ ينكمش في ركن، أمّا نفوسنا

فحجب الظلمة تطوّقها.. ليت لها شفافية ذاك الزجاج!. ووحدها.. وحدها بيننا.. تلك الصغيرة ذات السنة والنصف بسحر ما تؤلف بين النفوس!..

الهاتف بقربي يقمع أحاسيسي برنينه.. هو لصّ خفيّ يسرق لحظاتي المحببة.. أحاول تجاهله لكنه يلحّ.. إنه أخي لا يباشر أشياءه بنفسه، فلا بدّ له من وسيط حين يبتغي أمرًا..

- ماذا تفعلين؟ سألني، وهو لا يهتمّ لجوابي لكنني قصدت أن أجيبه، وأنا أعرف أنّ ما يباعدنا سدود ذات قتامة شديدة..

- أكتبُ.. وسكتّ أنتظرُ ردّه .

قال: لم لا تجعليني جزءًا مما تكتبين ؟..

- عندما دفؤك يشعشعني سأكتب عنك..

- مجريات حياتي الأخيرة؟ عمليتي الجراحية والكلية الغريبة التي زُرعت لي.. كلّ هذا لم يثر إلهامك ؟!

أرحت سماعة هاتفي في مكانها..أخي بسيطٌ كعادته لا يستطيع أن يدرك أن بعض الأحداث أمامها تعلن كلماتنا إضرابًا..وحين نتأ لم نصهل، ورماد نفوسنا وحده يذرينا..

صديقي الفلسطيني الغريب -عبد الله- تربع ذاكرتي منذ سهرة البارحة.. بيته لا يشرف على مشتلنا الجميل لكنه قريب من مشاعري.. سهرة رأس السنة مرت مملة.. غرباء على طاولة اجتمعنا لا شيء يجمعهم إلا رغبة في

مجاراة الغير الذين يسهرون، وشيء من التغيير.. حزينًا مطرقًا كان.. في كأس الشراب تتسارع أنفاسه، ويده الأخرى بخفية تنزلق إلى ركبته وتضغط عليها.. يكابر ألمه بينما عيناه تركمان نحيبًا..

نواحُ أمي في الصباح وصلني عبر أسلاك الهاتف.. جسدها المنكمش ليلة البارحة في فراشها، ووجهها المغطى بذراعها آخر ما كان ودعني مساء قبل سفري زادًا فقيرًا يغصّ بالحرقة.. لمرات ظننتها استساغت وداعنا فإذا بها تشتد وهنًا..

يا أمي.. لا توهني فجميعنا مسافرون.. لسنا إلاحبالًا مشدودة على وتر، ووحده الاغتراب يطاردنا.. طيف أمي، وابنتي بينهما موروث مشترك.. تذكرت أنه عبري إليها انتقل.. فحين أسرتنا تحزن عن كل الوجود تغترب.. بذراعنا نخفي وجوهنا مغمورة بالشجن..

بيتي في وطني الأمّ يغمض جفنيه على ذاك المشتل الجميل مخلفًا لي الذكرى ومعي أسقُّرها إلى بيتي الآخر في بلد الاغتراب..

كثير من البيوت فارقتها.. مجردُ خربشة خلّفتُ، ومع الزمن الخربشات تشكلت بيوتًا عديدة وأنا وحدي بطلة الحاضر والماضي.. أدخل إلى بيتي الآخر في تلك المدينة الملتهبة الخرساء.. في انتظاري أجده صامتًا، ونفسي عليها أقسو، وبالسياط ألهبُها: ألم تألفي الرحيل؟.. تَفحُّ نفسي في نشيجٍ مسحوق..

اليـــوم وصلت.. هو الجمعة.. ولحظي السيّء سأبقى وحيدة في مدينتي الغريبة حيث أقيم.. الجُمَعُ وأنا ندّان متضاربان.. ألا يكفيك يا هذا اليوم أنك غبيّ بصمتك لتكون أنت في انتظاري! توسّمتُ غريبًا في هذا البلد ألقاه،إليه أشكو، ولي بهمه يُفضي.. لكنّ الجمعة استراحة الجميع فكيف هي مع من نسائهم طيلة الأسبوع يهربون ؟..

تلك المحطة في العتمة يومًا بعد يوم تنتظرني حين المؤذنُ أنفاسُه في السَحَر تنتشي.. أجدّ الخطا.. لا أبتغي وقودَها.. هي فقط زاويةٌ نائيةٌ فيها سيارتي ألقي وشيئًا آخر.. جسدي المتعب المنتشل من دفء الفراش يواصل صخب العمل..

أكره كثيرًا أن يستعبدني العمل مبكرًا لكنّه الزّحام منه أفر في هذه المدينة المركومة، وإلى المحطة ألتجئُ وعلى مقعدي أترنّح.. أحلمُ قليلًا، وأسبّح ربي أكثر.. أما عيناي ففي سور مدرستي وساعتي تحدّقان..

طريقٌ ليلكيٌّ أجوبه في رحلاتي اليومية.. ضلعاهُ متوازيان بينهما أسَرَا غدوّي ورواحي.. الواحدُ منهما للذراعه الأخرى يسلمني، وأنا بينهما زبدٌ أجوف يتضاعفُ.. بضعةُ ممتلكات لي في هذه المكان: وحدتي.. سيارتي.. و..طرقات المدينة كلها..

بحيرة«خالد» صَمتُها يستثيرُ وجعي.. غارقةٌ بالقيد حتى قرطَيها.. الرصيفُ في تعذيبها يمعنُ بتواريخ من نِعال تدوسُه.. أليستِ الأنوثةُ في وجعها نستعبدُ نعالنا؟.. إلى البحر أفرّ منها.. شهريار في أحضانه تستوي نساء الوجود وغلمانه.. مالي وتلك البحيرة ؟ أنا أنثـى، وأنوثتي جوعى.. هو من أريده سلطانًا.. وأنا له شهرزاد..

في مسائي عاهدت«أنا» أن يكون يوم إجازتي مختلفًا.. سفر.. رياضة.. ثلاثة أيام من الإجازات كنز ثمين لا تجود به هذه المدينة دومًا، والصباح المبكر لن يصلبني في وقود المحطة.. وجهُ الدنيا تغيّر: ثلجٌ في الصحراء ومطروبرد، فلأتغيرْ أنا! بيتي أفرغ مخبوء الحنان، فهو لا يشعرُني إلا أيام الإجازات، وفناجيني وصحوني البرتقالية اصطفتْ في استقبالي.. مالي عدلت عن الخروج؟ وبنظرة من لومٍ انكفأت خجلى مطرزة بالأرجوان؟..

هذا التلفاز قبالتي قطعةٌ لاغنى لي عنها في البيت.. جربتُ مرة أن أعيش بدونه سُررتُ أنه خرس فجأة.. صبرتُ يومًا ويومين..تخلخلتُ تحت عبء السكون.. أخبارالاضطهاد والإرهاب والقتل.. العالم مكهربٌ بالوجع.. ونحن نشرب الشاي في فناجين برتقالية.. أخيرًا أشرعت رايتي البيضاء.. لا غنى لي عنك تلفازي حتى وإن كنت مرهقي..

ممثلة لفتتني في سهرة نهاية الأسبوع رأيتها في تلفازي ثدياها متدليان، وثوبها بنفسجي.. كبرياء البنفسج لون الموضة لهذا العام.. طريقي ليلكية،

وثيابها بنفسجية؟.. أليس الليلك هو البنفسج ذاته؟ لم لا يرتديه ذاك الديك الذي يرافقها أم البنفسج ارتداؤه على الرجال عار! بأربع عمليات جمّلت وجهاً شاحبًا.. لا بل أكثر.. فاتها تجميلُ رقبة قد تدلّتْ تقبّلُ ثدييها!.. وهي أيضًا عن الطبقات المسحوقة تتحدّث؟! وبحركة لا تَخفى تَرمي بشالها.. أتراه السَّحقُ استفزّها أم «الاستديو» بجوّه ألهبها؛ فانفلتت قمتا الثديين تستجديان تنفسًا..

اليوم جربت طقسًا جديدًا.. أن أحلّق مع النوارس.. عَدوتُ على الشاطئ.. التقطت صورة لنورس أبيض وحمام أسود مرقّطٍ.. الرمل تحت قدمي واسع جدًا.. والناس كفتات الخبز عليه منتشرون.. تساءلتُ من الأوسع؟ البحر، أم الرمل، أم ذاك الحُبّ الذي جمع بين الأسود المرقط والأبيض؟.. الجوعُ ينهش الأحاسيس البشرية.. ومن تراه الأفظع: الجوع؟ أم الموت؟ أم تلك النظرة الشبقة لرجلٍ بدشداشة بيضاء تفترسني؟؟..

غنّيت اليوم للمطر.. رقصت كالغجر في سيارتي غفلت عمن حولي.. عني مجنونة قالوا.. هاتفتُ كل الإذاعات المحلية.. استمتعتُ بتفاهات الكلام؛ فالازدحام كان كثيفًا، ولأول مرة أشعر أن الانتماء إلى طبقة التافهين قد يفيد أحيانًا، ولأول مرة أكتشف أن في «أنا» جزءًا لا بأس به من التفاهة.. الأحد القادم أنتظره بفارغ الصبر في هذه المدينة العنقاء.. غادرت قلبًا هناك في موطني غلّفه الصدى.. صغيرتي.. صبيّتي.. إمّا أن تجعليني أوسّد خدود

الأرض شموعًا وورودًا، وإما أن تجعلي البؤس يصهرني باحتراف.. أنت فرحتي الأولى أنتظرها وبها جرعة فجرعة أنتشي.. وحيدتي وبكر أحلامي بأناملك العاجية ستخطين سعادتي وبتخرجك هذا العام ستورقينني أوستشقينني..

كلماتك البسيطة وصلتي منذ لحظات.. شكرت الله على تقنية الرسائل القصيرة وعلى أنه قدّر لي أن أكون من أرباع الأثرياء؛ فأقتني هواتف نقالة.. لهفة الأنثى ليوم الزفاف ليست بحاجة أن لي تبديها..

توشوش لي:

«العروس جميلة جدا يا أمي.. بثوبها وبكل مافيها..»

ليس في الوجود أجمل منك وحيدتي.. وعما قريب رأسك الرائع بنجوم وأغنيات إغريقية سألوّنه..

وزائرتي كأنّ بها حياء فليس تزور إلا في الظلام..

في الفجر تلك الحمى أشارت إليّ، ولحلقي أرسلت تهديدًا لكنها إلى المساء أمهلتني.. حسبتك يا « أنا» قد كبرت، وإلا فما هذه الارتعاشات والحرارة اللاهبة التي ردتك إلى احتساء «الطحينة» والادّهان «بزيت السيرج»، وإلى جرائد قديمة بها أغمر صدرك.. هي وسائل بدائية استخدمتها جدتي وأمي أحسست أنها ستشفيني فسارعت بها أحتمي..عهود الطفولة بها نلوذ حين يستفزنا الألم ..

كـاتبةٌ عربية اخترت لهابعبثٍ كتابًا من مكتبة سخية حين أحببت أن أقرأ.. سحرني أسلوبها منذ البدء تصورت شكلًا لها يرافق جرأتها الأدبية وغيرها..بحثت عبر (النيت) عن صورتها فلم أتفاجأ.. فبعض البشر نشكّل لهم تصوراتٍ وملامحَ بمجرد أن نقرأهم أو نسمعهم..حسدتها على جرأتها لكنني على ملامحها لم أحسدها فأنا بملامحي شديدة التمسك.. بسببها تمنيت أن يُعلن عن برنامج في التلفاز يُعلّمُ الجرأة لأكون من أول الذين ينتسبون إليه..

وعندما وسادتي احتوتني أزمعت الهروب أيامي معدودة مهما استرسلت، وأنا لا أريد لأغلبها تدوينًا، فنتف منها تكفيني.. أأبتغي تخليد نفسي؟؟ ما للبشر، ونفسي.. لربما أثرتُ فضول قارئ سبيل، ولربما أقدامُهُ وطئتني دون أدنى تأثر كما كنت أطأ مقابرخضرًا حين أمُرّ في بستانٍ ملاصق لعملي ذات يوم، وبفارق تأثري الشديد آنذاك.. فلأُصمتْ إذن.. وللسكينة أسلّمُ بعثرتي ...



الكاتبة في سطور



أمان أحمد السيد

- قاصة سورية مقيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة
- ليسانس في الآداب، قسم اللغة العربية من جامعة تشرين، اللاذقية
- دبلوم في التأهيل التربوي من كلية التربية جامعة دمشق
- مذيعة سابقة في إذاعة صوت الوطن العربي، طرابلس– ليبيا
- نشرت أعمالها القصصية في العديد من الصحف والمجلات العربية، والمواقع الإلكترونية المتخصصة.
- صدر لها :

– قدري أن أولد أنثى : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٠٨

- البريد الإلكتروني : amounii@hotmail.com

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.

- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.

- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.

- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.

- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.

التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.

- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

- إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

إننا في "شمس للنشر والإعلام" إذ نسعى لتجاوز العديد من السلبيات في مجال النشر، فإننا لا نزعم قدرتنا على إحداث طفرة أو ثورة في معايير النشر السائدة، بل نسعى إلى التكامل مع جميع المهتمين والمهمومين بأحوال النشر في عالمنا العربي، ونمد أيادي التعاون لكل صاحب حلم أو تجربة راقية في هذا المجال، إيماناً منا بأن العلاقة التي تربطنا بالمهتمين والعاملين في مجال النشر هي علاقة تكاملية لا تنافسية، وأن التعاون للرقي بالكاتب والكتاب، سيعود بالنفع على الجميع، بدءاً من المؤلف إلى المتلقي إلى الناشر.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 7023206 - (+2) 0188890065/64



فهرس


شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net